لغة الضاد و أثرها في المجتمع المزابي الأمازيغي

بن عومر بشير بن حمو

إن الحمد لله نحمده حمدا كثيرا و نستعين به ونستغفره ونستهديه و نصلي و نسلم على سيدنا محمد و على آله و صحبه وسلم تسليما كثيرا و بعد:

قبل بداية عرض هذا البحث المتواضع لا يسعني في المقدمة إلا أن أوجه تحية شكر و تقدير و عرفان إلى «صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد أل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي حفظه الله»، و إلى إدارة المجلس الدولي للغة العربية و الهيئات الرسمية الراعية لهذا المؤتمر عناية بلغة الضاد و لصاحبة الجلالة «اللغة العربية» حفظها الله و أدامها.

و قبل البداية اقرأ لكم السلام و التحية فأقول السلام عليكم و رحمة الله تعالى و بركاته.

استجابة للدعوة الكريمة التي تلقيتها من هيئة المؤتمر للمشاركة في المؤتمر الثالث للغة العربية للسنة الماضية، و تثمينا لدورنا الريادي في الحفاظ على اللغة العربية و الدفاع عنها باستماتة، يسرني أن أشارك هذه المرة في المؤتمر الرابع للغة العربية بموضوع قل ما نجد له مثيلا في المجتمعات الإسلامية من حيث العناية بلغة الضاد و هي لغة القرآن و العربية الفصيحة تحت عنوان «لغة الضاد و أثرها في المجتمع الميزابي الأمازيغي».

و عملا بمصداق قوله سبحانه و تعالى في محكم تنزيله ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ سورة الإسراء ٩.

- قوله سبحانه و تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ سورة يوسف: ٢ .
- قوله سبحانه و تعالى ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ سورة فصلت: ٣.
- قوله سبحانه و تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ سورة لزخرف ٣.
- قوله سبحانه و تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ الروم: ٢٢ - قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ - الحجرات: ١٣.
- قوله سبحانه و تعالى ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ الأنبياء: ٩٢.

أبدأ مداخلتي بالاعتماد على عناصر البحث والتي تمس الجوانب التالية :

- الأصول التاريخية للمجتمع المزابي الإمازيغي قبل الإسلام و بعد الفتح الإسلامي.
- بناء المجتمع المزابي الأمازيغي على نهج الشريعة الإسلامية.
- المجتمع المزابي الأمازيغي و علاقته بالقرآن الكريم و اللغة العربية.
- بناء القيم الاجتماعية و نظمها على الشريعة و اتخاذ اللغة العربية لغة التخاطب و التوجيه الديني منذ سنة ٤٤٠ هـ بداية العمران الفعلي في منطقة وادي مزاب وفق «نظام حلقة العزابة».
- اتخاذ اللغة الأمازيغية و منها اللهجة الميزابية لغة التخاطب العام في المنازل و الحياة العادية، و اعتماد التسيير الاجتماعي في المنابر و المؤسسات العرفية بلغة العربية منها المحاضر القرآنية و المدارس القرآنية على أساس تكوين شخصية المزابي اجتماعيا بلغة الضاد.
- الجانب العقائدي و التحالف القديم الموجود بين السكان الأصليين الذين اعتنقوا مذهب المعتزلة و المتحالفين سابقا مع

المذهب الشيعي في بلاد المغرب بالشمال ضد إباضية الدولة الرستمية، و علاقتهم الوطيدة مع النازحين من الإباضية الوافدين من منطقة تيهرت عاصمة الدولة الرستمية المنهارة و فرارهم إلى منطقة واد ريغ و سدراتة و ورجلان «حاليا مدينة ورقلة جنوب الشرق الجزائري» وصولا إلى منطقة وادي ميزاب هروبا من الفتن و تمسك الإباضيين بالدين الإسلامي الحنيف منتهجين الوسطية و الاعتدال و التعايش مع الجميع وفق القيم الإنسانية و التسامح في المعاملة.

- اتفاق الطرفين المتحالفين المعتزلة المزابيين و الإباضية من أصول قبيلة زناتة الأمازيغية لوجود التقارب الكبير في النطق بهذه اللغة و على بناء المجتمع المزابي بناء حضاريا موحدا يستمد أصوله على التشريع الإسلامي وفق المذهب الإباضي الذي يرجع أصوله إلى الإمام التابعي جابر بن زيد و هو الذي أخذ العلم عن سبعين صحابيا أدركوا معركة بدر الكبرى و على رأسهم الإمام بحر الأمة عبد بن الله بن عباس رضي الله عنه و رضي عن الصحابة الكرام أجمعين و معاصر الخلفاء عمر بن الخطاب و عثمان بن عفان و علي بني أآبي طالب كرم الله وجهه، و العلاقة الوطيدة لجابر بن زيد مع أمنا عائشة رضي الله عنها زوجة النبي صلى الله عليه و سلم.
- بدأ الحياة الاجتماعية في منطقة وادي ميزاب منذ سنة ٤٤٠ هـ و تطور الثقافة العمرانية الفريدة من نوعها في العالم العربي و الإسلامي بإحداث نظام محكم و حكيم يسر الحياة الاجتماعية وفق مبادئ الشريعة الإسلامية و اللغة العربية ، و هو النظام المعروف بـ:» حلقة العزابة».

أصول تسمية مزاب أو بني مزاب و لغة الضاد «حرفي الصاد و العين» نموذجا :

المصطلحات التالية «مزاب – بنو مزاب – المزابيون» الواردة في البحث لها مدلول لغوي يساوي الكلمات المقابلة لها بالعربية و هي «مصعب - بني مصعب – المصعبيون» و نلاحظ من خلال هذه الكلمات أن بني مزاب قديما و قبل أن تتطور اللغة العربية و تنشر في المنطقة قبل الفتح الإسلامي و التي كان سكانها أمازيغيون بتعدد لهجاتها، توجد الصعوبة في النطق قديما ببعض الأحرف العربية، إذ صعب على السكان الأصليين للمنطقة النطق بحرف الصاد و يحول الصاد عندهم إلى زاي و حرف العين كذلك إلى ألف مد تسهيلا فيتحول «مصعب إلى مزاب»، و بحكم تداول هذه الكلمة، يمكن أن ندرج الأمثلة التالية حينما نقرأها بالعربية و ننطقها بالأمازيغية تقليدا للحرف العربي فنقول:

- لنأخذ مثالا و تصورنا أن شخصا عربيا التقى بأحد الأمازيغيين من المنطقة في ذلك العهد، و قال العربي لأمازيغي أنت تسكن في منطقة صعبة فيعيدها الأمازيغي بقوله أنا أسكن في منطقة «زابة» ، و مثال ذلك تقول له أنت من بني مصعب فيعيدها الأمازيغي مرة أخرى فيقول أنا من بني «مزاب» ، و مثال أخر أنتم مصعبيون فيقول لك نحن «مزابيون»، و هكذا أخذنا أمثلة لهذا التحويل في الحروف من الصاد إلى زاي و من العين إلى ألف مد تسهيلا، حيث يقول الأمازيغ من تلك المنطقة بأننا نسكن في منطقة زابة لومران و لا يفهم عربي اللسان معناها في أو وهلة، و إن طبقت عملية التحويل من الزاي إلى صاد وحول واو كلمة « لومران « إلى عين مضمومة فتقرأ «منطقة صعبة العمران»، و يفهم من هذا المثال الأخير أن الحياة في منطقة صعبة، و بحكم صعوبة النطق بحرفي الصاد و العين حولت الكلمة مصعب إلى «مزاب» بدل «مصعب» و شاعت تسمية المنطقة بهذا الاسم إلى تاريخ هذا اليوم، و ينسب هذا الاسم إلى السكان الأصليين المشتهرين بتسمية بني مصعب أي «بني مزاب» بحكم أن المنطقة التي عمروها في الصحراء الجزائرية كانت خالية من الإعمار و استقروا فيها استقرارا نهائيا و تحدوا سكانها الطبيعة و الوديان و شيدوا منازلهم و ديارهم على القمم الجبلية المطلة على ضفاف وادي مزاب، أو وادي مصعب و هو مجرى وديان مائية تتدفق إليه من جهات مختلفة و من مناطق قريبة لوادي مزاب، و استغلوا ضفاف الوادي للزراعة و إنشاء البساتين الغناء و زرع النخيل مما يجعل من المنطقة التي كانت قاحلة إلى جنات و بساتين،يعجز اللسان عن التعبير في طريقة إحداثها و نظام الري التقليدي المتميز في الاقتصاد بالماء إلى حفر الآبار التي يزيد عمقها عن ١٠٠ متر من القمم الجبلية إلى غاية منبع المياه، و بهذه الثقافة المتجدرة استطاع المزابيون أن يشكلوا نمطا عمرانيا فريدا من نوعه في العالم و

هو تحت حماية المنظمة اليونسكو التي تشتغل بالمحافظة على هذا التراث العالمي الزاخر.

الأصول التاريخية للمجتمع الميزابي الأمازيغي قبل وصول لغة الضاد:

و الآن نقوم بتحليل ماهية و أصول الحياة الاجتماعية في وادي ميزاب بولاية غرداية في الجمهورية الجزائرية، لما يتميز به هذا المجتمع من أصالة و الحفاظ على ثقافته في منظور المجتمع الإسلامي المحافظ و المتماسك طيلة عشر قرون هجرية مضت قل ما نجد له نظيرا في العالم من حيث التأطير و النظام الاجتماعي المتميز، و اسمحوا لي أن أعرج قبل بداية البحث في هذا الموضوع إلى ذكر أصول هذا المجتمع المزابي و جذوره التاريخية قبل الإسلام و قبل وصول حرف الضاد إلى المنطقة.

كما يعلم الجميع، أن منطقة شمال إفريقيا تتميز شعوبها بتعدد اللهجات المتفرعة من ١١ لهجة أصلية إلى ١١ لهجة أخرى فرعية و بنسبة تزيد عن ٨٥ ٪من الأصول الأمازيغية التي يمتد تواجدها من مدينة سيوة بجمهورية مصر العربية من الجهة الشرقية مرورا بليبيا و تونس و الجزائر نحو المحيط الأطلسي حيث بلاد المغرب و من شمال بحر الأبيض المتوسط بأوربا إلى الصحراء الكبرى جنوبا حيث بلاد مالي و النيجر و تشاد.

و حسب إحصاء المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية بالمملكة المغربية فإن عدد السكان الأمازيغيين تقريبا في العالم يقدر ب:٦٦ مليون نسمة موزعين بنسبة كبيرة في شمال إفريقيا، منها ٢ مليون في أوربا مثل فرنسا و ألمانيا و هولندا و بلجيكا و جزر الكناري بكندا.

و في تراب الجمهورية الجزائرية توجد في منطقة الشمال من شرقها إلى وسطها تعدد اللهجات الأمازيغية منها القبائلية و الشاوية و الشنوية شمالا و الميزابية و التارقية و الشلحية في جنوب الكبير و الجنوب الشرقي و منها قبيلة زناتة ، و كلها تتقاسم العادات و التقاليد العريقة منذ القدم بنفس الثقافة و تحتفل كلها سنويا بعيد إناير المصادف ليوم ١٢ جانفي «إناير» من كل سنة و يعد هذا اليوم هو رأس السنة الأمازيغية حيث انطلاق العد بهذه السنة ٩٥٠ سنة قبل الميلاد و يعد التقويم الفلاحي أو الزراعي في الشمال الإفريقي عموما و عند الأمازيغيين خصوصا، و هي مناسبة انتصار الملك شوشناق البربري الأمازيغي على فرعون مصر في عهده ، إلى أن جاء الإسلام و الفتوحات الإسلامية، و اعتناق أغلبية السكان الأمازيغيين للدين الإسلامي في عهد الفاتح الصحابي عقبة بن نافع و دوره في نشر تعاليم الدين الإسلامي و لغة الضاد هي لغة القرآن الكريم، بدا واضحا و جليا تأثر الأمزايغ بسماحة الإسلام و قبوله كدين رسمي لهم.

و لنركز مداخلتنا في أصول بني مزاب و تاريخهم و حضارتهم و علاقتهم بالإسلام، فقبل الفتح الإسلامي في منطقة وادي مزاب كان أهلها يعتنقون الوثنية و يؤمنون بأن هناك إله يدير هذا الكون و يسيره و يتحكم فيه و سموه بإله «آمون».

و عند وصول الفتح الإسلامي إلى المنطقة سنة ٨١ هجرية تقريبا،بدأ انتشار الإسلام في المغرب العربي و شمال إفريقيا عبر فتوحات متوالية، و اعتنق المزابيون الأمازيغ الدين الإسلامي على قناعة تامة، و كان في بادئ الأمر وصول الإسلام إلى المنطقة على المذهب المعتزلي، و كان سكان وادي مزاب الأصليين يتميزون بالقوة و الجرأة و الشهامة و الإقدام و تحدي الطبيعة و كانت تربطهم علاقة تواصل مع الواصلية المنتسبين «لواصل بن عطاء» فظهرت هذه الفرقة في كل من المغرب الأدنى بمدينة القيروان، و المغرب الأقصى التي كانت تحت سلطة دولة الأدارسة، و في المغرب الأوسط بقرب من عاصمة الدولة الرستمية الاباضية، حيث كان للمعتزلة مكانة خاصة عندهم و مستقلين في معتقدهم و أرائهم و أفكارهم حيث كان فيه التفاهم التام مع الدولة الرستمية آنذاك بين «١٦١ إلى ٢٩٦ هـ» ، بين عهدي الإمامين عبد الرحمن بن رستم إلى الإمام أبي اليقظان «الاباضيين الرستميين»، فناصروا المزابيين المعتزلة من الجنوب في تلك الفترة إخوانهم المعتزلة في الشمال الغربي إلى غاية سقوط الدولة الرستمية و اندثارها.

و عند نزوح الاباضية إلى الجنوب الشرقي لمنطقة واد ريغ و سدراتة و ورجلان، و بحكم حلهم و ترحالهم وصل الاباضية إلى منطقة وادي مزاب و تم تواصل الإباضية بالمعتزلة المزابيين و هم السكان الأصليين للمنطقة، و بحكم التقارب في المسائل

العقائدية بين المذهبين، اتفق الطرفان على اتخاذ المذهب الإباضي كمرجع للتشريع و تسيير الشؤون الاجتماعية في منطقة وادي ميزاب دون غيره بحكم العوامل التالية:

- صلة القرابة بين القبائل الأمازيغية و المزابيين في النطق باللهجة المشتركة – اقتضت المصلحة العامة بتوطيد العلاقات الأخوية في الله نصرة لدين الله مع اتفاقهم على تقوى الله و البر و الإحسان لكلى الطرفين بحكم نزوح الاباضية الجنوب الشرقي إلى منطقة وادي مزاب – توافق المذهبين و الاعتماد على التفكير العقلي و الأدلة الشرعية من القرآن و السنة في تسيير أمور المجتمع – ترحيب أمازيغ مزاب لإخوانهم الاباضية القادمين من منطقة واد ريغ و ورجلان و الذين أتوا بنظام متميز عن غيرهم ينظم الحياة الاجتماعية و سمي بنظام حلقة العزابة و هذا ما لم يكن عند المزابيين من مذهب المعتزلة فحصل الاتفاق على تسيير شؤون المجتمع وفق نظام موحد ارتضاه الطرفان الذي أبدع في تنظيمه خيرة علماء الإباضية الذين قدموا من الجهات القريبة من وادي ميزاب ، فاعتنق المزابيون الأصليون المذهب الإباضي جميعا و لم يعد بعد ذلك للمعتزلة تواجد بعد الاتفاق الذي حصل في منطقة وادي ريغ سنة ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م.

النظام الاجتماعي في وادي ميزاب:

ابتكر الإباضيون في الجنوب الجزائري نظاما أساسه تقوى الله و العمل بالقرآن الكريم و سنة نبيه المصطفى صلى الله عليه و سلم و العمل بسيرة الخلفاء الراشدين الأربعة رضي الله عنهم جميعا و سائر الصحابة رضي الله عنهم، بيد مؤسس حركة الدعوة و الاستقامة الإمام جابر بن زيد الأزدي العماني الذي أخذ أصول العلم على يد معلمه و موجهه عبد الله بن عباس و من معه من الصحابة الكرام السبعين الذين أدركوا غزوة بدر الكبرى ومن أمنا عائشة رضي الله عنها بين ٣٠ هـ إلى ٦٠ هـ، بحكم السفر إلى الحج و العمرة في كل سنة، و وصل المذهب الإباضي إلى منطقة الجنوب الجزائري بعد سقوط الدولة الرستمية سنة ٢٩٦ هـ و فرار الإباضية إلى منطقة الجنوب الشرقي بمراحل مختلفة من وادي ريغ إلى سدراتة و ثم ورجلان و استقر مقامهم نهائيا في منطقة وادي مزاب.

واضع نظام حلقة العزابة و العناية بلغة الضاد :

هو الإمام و العالم «أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي النفوسي»، وضع خطة عمل تقوم على أساس ترتيب أمور المجتمع و تسييره وفق الشريعة الإسلامية و العمل بالقرآن الكريم و السنة اقتداء بقول رسول الله صلى الله عليه و سلم «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله و سنتي».

و استدلالا بهذا الحديث النبوي و عملا بضرورة الحفاظ على القيم الاجتماعية و تكاثر أهوال الفتن في المناطق المجاورة لوادي مزاب بداية القرن الخامس الهجري ، و حفاظا على المجتمع الذي تشكل على أساس تقوى الله و التمسك بحبل الله من خلال تشييد القرى السبع لوادي ميزاب و هي : «العطف – مليكة – بنورة – غرداية - بني يزقن – بريان – القرارة» ، و تسمى بالمزابية بالتتابع كما يلي «تاجنينت – آتمليشت – آتبنور – تغردايت – اتيسجن – آتبرقان – أتلقرارة» في الفترة الممتدة بين ٤٠٢ إلى ١٠٤٠ هـ تقريبا و هي قرى متقاربة و متجاورة جغرافيا و تربط بينها علاقة النسب و التزاوج بين المزابيين في ما بينهم فقط، و لكل قرية أو قصر من قصور وادي مزاب هيئة تشرف على تسيير الشؤون الاجتماعية دينيا و اجتماعيا و اقتصاديا و المعروف في المجتمع المزابي «بحلقة العزابة» و قد تم تقنين هذا النظام ليكون ساري المفعول في كل زمان و لا يندثر أبدا و نحن نمر على عشر قرون من تأسيس هذا النظام، و ما زال قائما إلى يومنا هذا في وادي مزاب دون زيغ أو تحريف عن أصوله ، و تجتمع حلقات العزابة السبع في هيئة عليا تدعى «بهيئة مجلس الشيخ عمي سعيد» نسبة للعالم الجربي الإباضي التونسي الذي قدم من منطقة جربة بتونس سنة ٨٨٤ هـ، بعد أن استنجد به علماء وادي مزاب لينقد منطقة وادي مزاب من الجهل و الأمية و التخلف بعلمه الغزير و أصبح من العلماء الفطاحل في وادي مزاب.

و تركيزنا على هذه الهيئة و دورها الريادي في خدمة المجتمع هو أساس بحثنا و منطلقنا لنشرع في تفصيل البحث نوردها في النقاط التالية:

١- دور هذه الهيئة المحافظة على القيم الإسلامية و تمكين أبناء المجتمع من الوحدة و عدم الفرقة إذ يتساوى فيه الفقير و الغني من حيث الحقوق و الواجبات و الكل يمتثل لأوامر هذه الهيئة و كل مخالف و خارج عن هذا النظام يتبرأ منه مهما علا شأنه و كثر جاهه، فهذه الهيئة مسخرة لتسيير أمور المجتمع في كل قرية و لها نفس النظام و التشكيلة في قصور وادي مزاب السابق ذكرها، و تتشكل الحلقة من وظائف و مهام رئيسية وفرعية حسب الجدول الموضح لتقسيم المهام:

الهيئة العليا لحلقة العزابة في قرى وادي مزاب	شيخ الحلقة، يعين بالشورى و يكون غالبا الأكبر في السن و عالما بأمور الدين و لغة الضاد				
	المستشارون	إمام المسجد	المؤذن	وكيل الأوقاف	الواعظ و المرشد
	الغسالون	يتكفلون بغسل الموتى و توجد هيئة الغسالات للنساء فقط			
	المساعدون	لكل مهمة في حلقة العزابة نواب مساعدون و هم أعضاء الحلقة			
	العرفاء	التعليم القرآني	تنظيم ختمات القرآن	منظم أوقات التعليم	مكلف بتوزيع الصدقات

الجدول يوضح التشكيلة البشرية لحلقة العزابة و مهام التسيير للمجتمع في الجانب الديني و الاجتماعي و التربوي التدريسي للقرآن الكريم و العلوم الشرعية باللغة العربية طبعا، و تتكون من ١٢ إلى ١٤ عضوا أساسيا .

٢- تسمية حلقة العزابة هي مدلول روحي أي أن عضو حلقة العزابة أو العزابي مشتق من كلمة «عَزَبَ – يَعْزُبُ – عُزُوبًا و جمعه عُزَّاب و مفرده أَعْزَب»، و كلها تفيد لغة معنى غياب الإنسان عن أهله أو ماله أو متاعه بالتعريف اللغوي، كما تفيد معنى العزوبة بالنسبة للإنسان غير المتزوج، و ورد معناها في القرآن و يقصد بها الغياب، مصداقا لقوله سبحانه و تعالى ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ يونس: ٦١، أما اصطلاحا في النظام العرفي المزابي فيعني التفرغ التام لإدارة شؤون المجتمع تطوعا، و العزوف عن ملذات الدنيا و الانشغال بالدين .

٣- وفق هذا النظام يتم اختيار عناصره بمبدأ الشورى و يلتزمون بالتطوع لوجه الله لا يتقاضى أي عضو «العزاب» أي منحة و لا يطلب أجرا مقابل عمله طول حياته، و يشترط فيه أن يكون له من الرزق ما يكفيه ليتفرغ للأمور الدينية و الاجتماعية، و لا يُقَال من وظيفته إلا إذا خالف النظام و شرع الله و تعداه أو فارق الحياة إلى الدار الأخرى، و يترأس هذا المجلس أو الهيئة الأكبر سنا و أقرأهم لكتاب الله و العارف بأمور الدين و الشريعة و بلغة الضاد، و توزع المهام المدرجة في الجدول وفق التخصص الذي تم اختيار كل عضو فيه.

٤- تطور هذه الهيئة منذ نشأتها إلى تاريخ هذا اليوم يكون وفق الحالات الطارئة و التغيرات الاجتماعية المتوالية عبر الزمن.

المحور الأول: المجتمع المزابي يضرب به المثل في الحفاظ على الدين ، فمرجعيته القرآن الكريم و سنة نبينا المصطفى صلى الله عليه و سلم و القياس و الإجماع، مع التجاوب الكبير مع المرجعيات الدينية التي تدعوا إلى الوسطية و الاعتدال و نبذ الفرقة و التطرف، و مرجعية التسيير الاجتماعي و التخاطب الديني و الروحي لا يكون إلا باللغة العربية مصداقا لقوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ سورة يوسف ٢.

و من أهم أسس هذا المجتمع أنه يرعى اللغة العربية و يطورها و ينشئ لها مجالس للعناية بها من خلال حلقات التدريس و التعليم، و تكوين الأطر التربوية للذكور و الإناث كل حسب ترتيبه و مستواه الفكري و وفق تسلسل عمر الإنسان، و الكل يجد حقه من نصيبه في التعليم و التعلم، و لا يترك المجال للأمية و التخلف في المجتمع أبدا.

المحور الثاني: رغم أن المجتمع المزابي يعد ضمن التشكيلة العرقية في المجتمع الجزائري من غير الأصول العربية، و اللهجة

المزابية هي جزء لا يتجزأ أو فرع من فروع الأمازيغية المستمدة جذورها من أحد أبناء سيدنا نوح عليه السلام، و تواجد بعض اللهجات في بلاد المغرب العربي و شمال إفريقيا التي تدعوا إلى العصبية و التمسك بالثقافة الأمازيغية و نشرها و تعليمها دون اللغة العربية، إلا أننا نجد في خاصية المجتمع المزابي لا يدعوا إلى هذا التوجه بحكم أنه مجتمع يسير على النمط الديني الإسلامي و الإسلام لا يدعوا إلى العصبية و الفرقة و الجهوية و نقول في منظورنا بأننا نحن الأمازيغ عربنا الإسلام و نعمل بهذا الحكم وفق ما قاله المولى تبارك و تعالى في محكم تنزيله ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ الروم: ٢٢. – و قال أيضا سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات: ١٣ – و قوله سبحانه و تعالى ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ الأنبياء: ٩٢. إذ يرى المزابيون بأن مدلول هذه الآيات ينطبق على كل الأجناس المنتشرة في العالم و النطق باللغة الأمازيغية و اللهجة هي آية من آيات الله إذ نعتز و نفتخر بها و نقر بمشروعية هذه الآيات عندما نقارنها بما قاله الحبيب المصطفى صلى الله عليه و سلم «لا فرق بين عربي و أعجمي إلا بالتقوى» فعناية المزابيين بالقرآن و العمل بأحكامه لا يمنع أنهم يعتزون بلهجتهم و يتخذونها لغة التخاطب في الأمور الدنيوية و الشخصية دون أن ننقص من قيمة اللغة العربية التي هي أساس التسيير الاجتماعي و لغة التخاطب و تبليغ الرسالة المحمدية، و الهدف من وراء هذا هو القضاء على الجهل و الجهالة و الأمية من خلال التركيز على التحدث في المنابر الرسمية و الوعظ و الإرشاد بلغة الضاد و هي لغة القرآن و لغة أهل الجنة.

المحور الثالث: طبيعة التعليم الحر و العناية باللغة العربية في مجتمع وادي مزاب في العهد المعاصر: و وفق نظام حلقة العزابة و منذ القديم و تحت سلطتها توجد هيئة عرفية تهتم بالجانب التربوي التعليمي و التكويني مهمتها الإشراف على النظام التربوي التعليمي باللغة العربية إذ تم تأسيس صرح ديني في كل قصر من قصور وادي مزاب و هو نظام تربوي تعليمي موحد من حيث المناهج و المقررات، و تسمى عندنا بالمدارس الحرة، مهمتها الإشراف على التدريس و التعليم منذ الصغر و يشرف عليها طاقما تربويا و هي حلقة «إِرْوَانْ» تجمع حفظة كتاب الله و مهمتهم عمارة المساجد و الإشراف على التعليم القرآني في المحاضر و حضور ختمات القرآن حسب نظام معين متفق عليه في كل قصور وادي مزاب تحت إشراف حلقة العزابة. و شهدت مراحل تعليم اللغة العربية في وادي مزاب منذ عشرة قرون مراحل مختلفة حسب التطور الزمني و لكن كلها تسير بنمط واحد ووفق النظام الاجتماعي الذي يسير من قبل حلقة العزابة التي تعتبر المرشد الديني و الروحي للمجتمع و هي السلطة العليا التي تدير شؤون المجتمع، همها الوحيد العناية بالقرآن الكريم و تعليم اللغة العربية و التعليم الديني المعتدل للناشئة ذكورا و إناثا ، و لم نجد يوما ما أو فترة ما من زمان ما فكرت هذه الهيئة أي حلقة العزابة أن أهملت التعليم الديني باللغة العربية أو سعت إلى تخصيص أقسام باللغة الأمازيغية أو اللهجة المزابية ضد اللغة العربية كما نراها في بعض المناطق المختلفة من شمال إفريقيا عموما دون ذكر الجهة، كل هذا حفاظا على القيم الإسلامية و المجتمع الذي أنشأ و تربى على الطريقة الإسلامية الحقة، و تعليم اللغة الأمازيغية أو اللهجة المزابية هي تنقل عن طريق التخاطب و التعامل اليومي المتوارث أبا عن جد، و لم تأسس لها مدارس و معاهد لتطويرها، بل هناك جهات مختصة تتكون من مثقفين متميزين في اللهجة المزابية يعتنون بهذا الإرث الحضاري يدونون المصطلحات و الحكم و أقوال الحكماء كثقافة اجتماعية شعبية متجدرة و تعتبر عندنا كثقافة أصيلة لا يمكن الاستغناء عنها و هي محلية تحفظ في مدونات ليعتني بها الرجال لتنقل إلى الأجيال و هي مستمرة على هذا النمط إلى تاريخ هذا اليوم.

المحور الرابع: طريقة تعليم اللغة العربية في وادي مزاب للذكور و الإناث منذ القدم:

- للإناث: حيث أن الأنثى عند المزابيين لا تزاول تعليمها في المدارس الرسمية التابعة للدولة الجزائرية منذ الاستقلال إلا نادرا حيث تواجد المزابيين في المناطق الشمالية و الجنوبية خارج محيط وادي مزاب، و انشغل المربون الأوائل على حفظ و كرامة الفتات على طريقة النمط القديم المحافظ لشرف الأنثى و المرأة عموما ، و حفاظا على عفتها و كرامتها من الاختلاط،

أنشئت لها طريقة خاصة، لتكون مربية الأجيال وفق منظور الشريعة الإسلامية، و تأخذ قسطها من التعليم كالذكور ما ينفعها في دينها و دنياها إذ تتعلم أصول اللغة العربية و حفظ القرآن الكريم و مختلف الدروس المتعلقة بالشريعة الإسلامية منذ الصغر إلى كبرها، و خصص لهذا الجنس أقسام حرة تسير بوجود طاقم تربوي متخصص تحت إشراف و سلطة حلقة العزابة دائما مهمته العناية بشؤون البنت و المرأة في شتى المجالات التربوية و التعليمية و الدروس الشرعية من وعظ و إرشاد تحت إشراف هيئة نسوية تسمى بهيئة «تيمسيريدين» و معناها «الغسالات» و هي هيئة فرعية تحت سلطة حلقة العزابة تتكون من مجموعة نساء يشرفن على تسير شؤون المرأة و حياتها الاجتماعية متخصصات و لهن دراية كاملة في أحكام الشرع و يتم اختيارهن من قبل هيئة خاصة بالشورى.

- أما الذكور و في العهد المعاصر و بعد الاستقلال مباشرة يزاول التلميذ و الطالب تعليمه في التعليم الرسمي التابع للدولة الجزائرية إجباريا، و توجد أقسام خاصة تابعة للتنظيم السابق تستقبل التلاميذ و الطلبة في فترات معينة منها الفترة الصباحية بعد صلاة الفجر مباشرة من كل يوم إلى الشروق، تفتح أقسام لحفظ القرآن الكريم لكل الأطوار التعليمية و في الفترة المسائية بعد خروج التلاميذ من التعليم الرسمي يلتحق مباشرة إلى نفس الأقسام الصباحية و لمدة ساعتين إضافيتين يتلقى التلميذ أو الطالب تعليمه الروحي من خلال الدروس الدينية و الشريعة و هي المواد التي لا تدرس في التعليم الرسمي من الابتدائي إلى الإعدادي إلى الثانوي، و تعد هذه الطريقة هي تكوين لشخصية المزابي الطالب للعلم وفق المنهج الاجتماعي المتبع في وادي مزاب منذ القدم إلى تاريخ هذا اليوم، و من خلال هذه الطريقة يتم تكوين دفعات من الطلبة للعناية بالتعليم وفق تخصصات معينة مثل اللغة العربية و الأدب العربي – الفقه و الحديث و علم الميراث و أحكام التجويد و علوم القرآن ...إلخ، في معاهد تعليمية خاصة حرة مستقلة غير تابعة للدولة، و يسيرها طاقم إداري و تربوي متخصص يكون أجيال المستقبل لغرض الحفاظ على المجتمع و في مسيرة دائمة و مستمرة.

المحور الخامس: تجدر اللغة العربية في أبناء وادي مزاب المثقفين، من خلال ما سبق ذكره و العناية بالقرآن الكريم و اللغة العربية و الشريعة الإسلامية لدى الذكور و الإناث سويا، نجد قابلية التخاطب و التجاوب السريع في تكوين شخصية المزابي و التحاور المباشر مع الآخر بلغة الضاد دون أن نجد أي أحد من المثقفين يدعوا إلى العصبية و التفرقة و الدعوة إلى العناية بلغة غير لغة الضاد، و قل ما نجد هذا إلا في الحالات الشاذة التي لا يقاس عليها أصلا في المجتمع المزابي.

كما أن تواجد أي طالب أو تلميذ مزابي في أي منطقة من مناطق الجزائر الشاسعة، و من خلال تربيته الأولى في المجتمع يجد الراحة و سهولة التأقلم مع زملائه في مجتمع مغاير غير المجتمع الذي نشأ فيه و تظهر علاقة احترام و تقدير بينه و بين معلميه في أي مؤسسة ما عبر التراب الوطني مشفعة بالأريحية و حسن التخاطب و هي ميزة متجدرة فيه منذ الصغر بحكم تنشئته على العناية بالقرآن الكريم و مخاطبة مربيه و معلميه باللغة العربية الفصيحة.

المحور السادس: دور المزابيين في الدفاع عن اللغة العربية و العناية بها، هناك منظمات حقوقية في الجزائر مدعومة بأفكار غربية انغمست في الآونة الأخيرة و خاصة بعد التفتح الفكري و التعدد السياسي في الجزائر، ظهرت مجموعة من الأشخاص المنضوية تحت لواء منظمات حقوقية عالمية تدعي العناية بالأقلية و الحفاظ على خصوصياتها و ثقافتها خوفا من الضياع و الاندثار، و تجد من يقوم بالدفاع عن اللغة العربية و باستماتة باسلة مستعملا السلطة العرفية الحاكمة في وادي مزاب كقوة ردعية لا تقبل التفرقة في المجتمع مثل هيئة حلقة العزابة و المشايخ الذين يشرفون على تسيير الشؤون الاجتماعية. بل العكس الهدف من هذه الجرأة الحفاظ على المقومات الإسلامية التي حافظ عليها السلف الصالح منذ عشرة قرون و ما زال الوضع مستمرا إلى غاية هذا اليوم، ناهيك عن بعض التوترات التي حصلت في المنطقة منذ استقلال الجزائر و في الآونة الأخيرة ،و هي سياسة الاستعمار الفرنسي الفاشل الذي يدعوا إلى التفرقة و تشجيع العصبية المفرطة قصد خلق بؤر التوتر في المجتمعات التي يقال عنها أنها « مجتمعات الأقلية» و التي تدافع عنها بعض المنظمات الحقوقية التي لم تجد في مجتمع وادي مزاب متنفسا لتعكير صفو الحياة الموحدة فيه.

المحور السابع: علاقة المزابيين و اهتمامهم بلغة الضاد مع النظام الجزائري، هو موضوع جد حساس أعطينا له الأهمية بالذات حتى نعلم القارئ الكريم أن السلطة الجزائرية الحاكمة منذ الاستقلال إلى تاريخ هذا اليوم، ترى لهذا المجتمع بعين الاحترام و التقدير فهو نظام متميز و فريد من نوعه في العالم الإسلامي و المجتمع المزابي بالجزائر يتميز بخصوصية هامة تتعلق بتسيير شؤونه الاجتماعية دون أن تتدخل الدولة، فهو نظام محكم يسير عرفيا تحت وصاية الهيئة العرفية الجامعة و التي تسمى بهيئة «مجلس الشيخ عمي سعيد» الجامع لكل حلقات العزابة لقصور وادي مزاب السبعة، فلم نشهد يوما و أن تدخلت الحكومات الجزائرية منذ الاستقلال و أصدرت قرار تأميم المدارس الحرة و النظم الاجتماعية كما هو موجود في النظم الاجتماعية الأخرى في كامل تراب الجمهورية الجزائرية من شرقها إلى غربها و من شمالها إلى جنوبها، حيث تسير الدولة المساجد و الزوايا و المدارس القرآنية التي هي تحت وصاية وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف، أو المدارس التعليمية الرسمية و المتوسطات و الثانويات تحت وصاية وزارة التربية الوطنية. و في مجتمع وادي مزاب يتم التركيز على تعليم أبنائها بلغة الضاد أي اللغة العربية و التزام النظام المزابي باحترام القانون الجزائري و نظمه و تخريج دفعات متوالية من خيرة أبنائها لخدمة الوطن الجزائر منذ الاستقلال، و حصولهم على أرقي المناصب الرسمية في الدولة الجزائرية يزيد للمنطقة فخرا و اعتزازا على نوعية التعليم المتبع في وادي مزاب و ثقافة تكوين شخصية المزابي التي تتميز بالإخلاص و التفاني في العمل لله و للوطن، مقابل نظرائهم من الجهات الأخرى من الوطن الجزائري. فالمؤسسات العرفية في المجتمع المزابي تعتمد على الاكتفاء الذاتي في تشييد الصُرُح الاجتماعية كالمؤسسات الخاصة من مساجد و مصليات و مدارس و معاهد خاصة في نظام موحد، إذ يشمر المزابيين على سواعدهم عن طريق مساعدات و تبرعات يساهمون بها لأجل تشييدها و بنائها بتقوى الله ، بحيث لا نجد للدولة الجزائرية أية مساهمة مادية أو مالية للبناء و تشييد المرافق العرفية في وادي مزاب، ما عدا المؤسسات الرسمية من التعليم الابتدائي و المتوسط و الثانوي فهي تحت ملكية الدولة و يستفيد منها الأبناء الذكور كلية من التعليم المجاني، مع التحاقهم عند بعض الفترات للتكوين الديني و الروحي خارج التوقيت الرسمي في المدارس الحرة التابعة للهيئات العرفية لوادي مزاب، كما سبق و أن أشرنا في المحور الرابع. كما أن الدولة الجزائرية بحكم ثقتها الكاملة لهذا المجتمع المثيل و المنظم لا تتدخل في شؤونه أبدا، مما جعل التعليم الحر في الجزائر بالنسبة للمزابيين يلقى التشجيع المطلق من قبل الدولة الجزائرية ليس من باب التمويل فحسب بل من حيث تسهيل عملية ترخيص البناء و التشييد، و البقية تعود للهيئات العرفية التي تتكفل ماليا بتشييد المنشئات التربوية، كل هذا من أجل لغة الضاد سيدة اللغات و أعرقها مكانة.

المحور الثامن: النشاطات الاجتماعية و علاقتها بلغة الضاد، و بنفس الطريقة التي تناولناها في المجال التعليم التربوي، نجد النشاطات الاجتماعية مثل الأعراس و المآتم و الملتقيات، يفسح المجال للتحدث باللغة العربية الفصحى من قبل مرشدين مخصصين لهذا الغرض مع حوار و نقاش ، مهمتهم تبليغ الرسالة التربوية من خلال الخطاب الموجه لعامة الناس باللغة العربية ليتعلموا و يستوعبوا العبر من القرآن الكريم و من السنة النبوية و الخلفاء الراشدين و دورهم الجهادي للحفاظ على الإسلام، و تناول سير السلف الصالح من الصحابة رضوان الله عليهم و العلماء الذين أفنوا حياتهم للحفاظ على هذا الدين على المستوى العالمي و الجزائر و في وادي مزاب خاصة، فنجد أغلب المتعلمين يستغلون مثل هذه المنابر للحضور و التمتع و الاستمتاع و التعلم مع إحضار أبنائهم و بناتهم لنشر العلم و الفضيلة و التربية و الأخلاق بلباس موحد قل ما نجد له نظير في العالم الإسلامي، و يعملون بحكم الشرع و تنشئة أبنائهم بالتربية و الأخلاق مطبقين أمر الله مصداقا لقوله سبحانه و يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ الأعراف ٣١، كما تفتح منابر للمناظرات الشعرية و الخطب المنبرية للناشئة كلما حلت مناسبة دينية أو أفراح أعراس فردية أو جماعية، أو حتى في المآتم عند تشييع أي شخص فارق الحياة سواء أكان ذكرا أم أنثى إلى مثواه الأخير و تقام حلقة للتذكر و العظة و الاعتبار باللغة العربية، و يفهمها عامة الناس بدون استثناء. كما أن هناك نظاما دقيقا يخصص للفئات العمرية ذكورا و إناثا، و تسمى بمجالس الذكر و العظة و الموعظة في المساجد مهمتها الإشراف على التوجيه الديني، و كذا الإشراف على توزيع ختمات القرآن الكريم مساء كل يوم الأحد و

الأربعاء أسبوعيا بحيث يوزع القرآن الكريم للتلاوة الفردية عبر حصص أجزاء يختارها كل من يريد ليقرأها في المنزل له و لأهله، فيبدأ شيخ الحلقة في المسجد بسرد الأجزاء و يعرضها للاختيار من سورة البقرة إلى الجزء التاسع و الخمسين من القرآن الكريم ، فقط و يترك الجزء الأخير للقراءة الجماعية في المسجد لليوم الموالي حتى يضمن للمسجد عمارته و حضور درس الموعظة و التوجيه الأسبوعي مع التنبيهات من قبل هيئة الإرشاد و معاقبة المخالفين في المجتمع للقوانين العرفية و الخروج عن الطاعة إن وجد، و هكذا يوزع القرآن الكريم لتلاوته في كل الديار في الأسبوع مرتين في كل قصور وادي مزاب و هو نمط مستمر منذ ألف سنة، مما يشجع بطريقة آلية لحفظ القرآن الكريم للذكور و الإناث و على مختلف المستويات العمرية، مما يساعد القارئ للقرآن الكريم على التدبر في معاني كتاب الله و العمل بأحكامه .

دون أن ننسى الحلقات المخصصة لتعلم العلوم الشرعية من علوم القرآن الكريم و الأحاديث النبوية و أصول الفقه و علم الميراث و أحكام التجويد و غيرها من العلوم الدينية، عبر مجالس يحضرها أهل الاختصاص و الغرض من هذا تخريج دفعات لتتولي مهمة تسيير الشؤون الاجتماعية و لتكون خير خلف لخير سلف.

المحور التاسع: موقف المزابيين من تدريس اللغة الأمازيغية و تسجيلها كلغة ثانية في الدستور الجزائري، و يأتي هذا التعديل استجابة لطلب من الشرائح الاجتماعية الامازيغية في الجزائر بضرورة ترسيم اللغة الأمازيغة كلغة رسمية و تدريسها رسميا في المدارس الجزائرية، و عملا بهذا المطلب الجماهيري، اعتمدت اللغة الأمازيغية في المقررات الرسمية إلا أنها اختيارية وليست إجبارية، مما جعل المزابيون المتأثرون بلغة الضاد منذ الفتح الإسلامي لم يتجرؤوا يوما أن قاموا بمعاداة اللغة العربية و ضربها بلغة أخرى، و هذا عبر قرون مضت، و لم يكن للمجتمع المزابي مطلب ملح في هذا الشأن إلا الفئة القليلة. و من هنا فإن المزابيين رغم دسترة هذه اللغة و إدراجها في التعليم الرسمي، لا تجد الاستجابة المطلقة لتعليم الأبناء المزابيين للغة الأمازيغية بحكم اختلاف اللهجات، و عزوف التلاميذ و الطلبة لتعلم هذه اللغة التي يعتبرها المزابيون أنها لهجة للتخاطب الاجتماعي و لا يتوجب تعليم اللهجة المزابية لغيرهم، و لا جدوى من تعلم هذه اللهجة أو اللهجات الأخرى فنجد أن اللهجة المزابية يتقنها العام و الخاص في وادي مزاب، و لا يوجد في المجتمع من يؤيد هذا الطرح بالإجماع. و من هنا فإن المزابيين في وادي مزاب اعتمدوا في حجتهم على أن الجزائر دولة عربية مسلمة و عليهم بتطبيق اللغة العربية التي أنبنى عليها المجتمع المزابي بلغة القرآن الكريم و السيرة العطرة للحبيب المصطفى صلى الله عليه و سلم وسائر الخلفاء الراشدين و الصحابة رضي الله عنهم جميعا الذين حملوا مشعل تبليغ الرسالة الإسلامية بدون تعصب و لا همجية فكرية متطرفة تدعوا إلى الفرقة و التشتت بل إلى فكر و نهج وسطي معتدل مصداقا لقوله سبحانه و تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ البقرة: ١٤٣.

المحور العاشر: الولاية و البراءة من أجل لغة الضاد، يقصد بها ما أشير إليه في المحور التاسع أن هناك تنظيمات سياسية متعصبة تريد التوغل في المجتمع المزابي المتماسك و الموحد، لتجعل من بعض المتعصبين و المتحمسين لترسيم اللغة الأمازيغية باستدراج فئة قليلة من أنصارهم لزرع بذور الفتنة و الشقاق من خلال هذا الموضوع، و مشيخة وادي مزاب قبل ترسيم هذه اللغة بينت و وضحت للدولة الجزائرية أن لا شأن لها بهذا التعديل، حتى و إن بوركت هذه المبادرة الدستورية من قبل الدولة الجزائرية و المجتمع الجزائري ، إلا أن المزابيين رفضوا الاعتماد عليها كمرجعية لمحاربة لغة الضاد و هي اللغة العربية و لغة القرآن هي لغة أهل الجنة. و تم الإعلان الصريح في كل المجالس العرفية لوادي مزاب أن كل من يتخذ من اللغة الأمازيغية المدرجة في الدستور الجزائري وسيلة لإحياء النعرات القبلية سواء أكانت سياسية أو حقوقية فإن المزابي المصر على العناد و مخالفة الإجماع المتفق عليه يتبرأ منه و يعلن عنه أنه في براءة المسلمين أمام الملإ و في المسجد و يقاطع في التعامل معه و ينفره الناس،إلى أن يعود إلى جادة صوابه و يتخلى عن فكره المتطرف الممزق لوحدة المجتمع المتماسك .

المحور الحادي عشر:أمثلة و نماذج من فطاحل المشايخ و المؤرخين و الأدباء و المفكرين في العهد المعاصر بوادي مزاب، من خلال ما سبق ذكره من حقائق تاريخية و مناهج تربوية اجتماعية جسدت بفضل لغة الضاد و حماية المجتمع من الانحلال و

الانحراف و حفاظا على القيم الاجتماعية، نورد في هذا المحور أهم المحطات التي عرفتها منطقة وادي مزاب من حيث نشر العلم و تكوين الأطر الاجتماعية من أواخر القرن التاسع عشر و إلى غاية القرن الماضي و الحالي كنموذج.

١. شخصية قطب الأيمة الشيخ محمد بن يوسف اطفيش ١٢٣٧ هـ/١٨٢١ م – ١٣٣٢هـ/١٩١٤م ، و هو أشهر عالم إباضي في المغرب العربي، هو نابغة في الفكر و اجتهد في عهده، رسم معالم التعليم الديني من خلال حلقات التعليم باللغة العربية و درس أيضا باللهجة المزابية الأمازيغية، و سخر جل حياته للتعلم و التعليم، و اتسعت دائرة تعليمه لطلبته إلى بلاد المغرب العربي و حتى من المدينة المنورة، له من المؤلفات في مختلف العلوم الشرعية ما يزيد عن ثلاثمائة كتاب و رسالة و مخطوط، و جمعته علاقات أخوية مع الكثير من العلماء في عصره و صلت إلى البلاد العربية مثل البحرين و الحجاز، عمان ، مصر و تونس ، ليبيا ، القسطنطينية في تركيا حاليا و بعض العواصم الأوربية التي وصل إليها الإسلام، وقف ضد المستعمر الفرنسي ندا للند مواجها إياه بأفصح الرسائل متحديا الوالي العام الفرنسي سنة ١٣٠٤ هـ/١٨٨٢ م، تخرج على يده خيرة علماء وادي مزاب، و الذين حملوا المشعل من بعده.

٢. رائد الصحافة الجزائرية الشيخ إبراهيم بن عيسى أبو اليقظان ١٨٨٨/١٩٧٣ م، فهو تلميذ و خريج مدرسة قطب الأيمة الشيخ محمد بن يوسف اطفيش، أول من اشتغل في الجزائر في تكوين الصحافة العربية و بلسان عربي مبين، عضو مؤسس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بمعية الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الإصلاحية في الجزائر، كان يواجه الاستعمار بالقلم، و إصداره لعدة جرائد يطبعها في تونس الشقيقة و يوزعها في الجزائر سرا، كلما صادر الاستعمار جريدة إلا و يلجأ إلى إصدار جريدة أخرى تحت عناوين مغايرة، و من الجرائد التي واجه بها الاستعمار «جريدة واد ميزاب – ميزاب – المغرب – النور – البستان – النبراس – الأمة – الفرقان»، و يعد أول مؤسس لمطبعة جزائرية سماها بالمطبعة العربية تحديا للمستعمر الفرنسي و بنفقته الخاصة ، و اشتهرت هذه الجرائد في كل أصقاع بلاد العالم الإسلامي من شرقها إلى غربها و من شمالها إلى جنوبها و اجتهد في إرسالها عبر وسطاء من مختلف الهيئات العربية و الإسلامية، رغم المصاعب و العراقيل الاستعمارية لم يترك لحظة من حياته إلا و جاهد بالقلم و الكلمة إلى غاية نيل الجزائر حريتها و استقلالها.

٣. الشيخ أبو إسحاق ابراهيم أطفيش ١٨٨٦/١٩٦٥م، هو خريج مدرسه عمه قطب الأيمة الشيخ محمد بن يوسف اطفيش، زاول تعليمه بعد ذلك في الجزائر العاصمة و منها إلى تونس تتلمذ على يدي الشيخين بن يوسف الحنفي و الشيخ الطاهر بن عاشور و كان رفيق درب الشيخ إبراهيم أبو اليقظان رائد الصحافة الجزائرية، واقتحم عالم السياسة من خلال مساهمته في تأسيس حزب الدستور التونسي في عهد الشيخ العلامة عبد العزيز الثعالبي، أصدرت فرنسا في حقه الطرد من التراب التونسي و اختار وجهته القاهرة بمصر. انغمس في نشر العلم و المعرفة و السياسة و اجتهد في التأليف و الصحافة و الإفتاء على المذاهب الأربعة و المذهب الإباضي خصوصا، كما كان مشرفا على الأوقاف الإباضية في مصر بتعيين من وزارة الأوقاف المصرية، و كانت تربطه علاقة وطيدة مع كبار علماء مصر في عهده أمثال محي الدين الخطيب – السيد قطب – محمد رشيد رضا، و كانت له صله محبة مع مكتب طلبة سلطنة عمان في القاهرة، و لحنكته السياسية أسندت له مهمة الدفاع عن قضية سلطنة عمان في منبر الأمم المتحدة و مجلس الأمن بأمر من الإمام غالب بن علي العماني.

٤. الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض ١٨٩٩/١٩٨١م، رائد الحركة الإصلاحية في الجنوب و من المؤسسين الأوائل لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أسس معهد الحياة سنة ١٩٢٥م، و تربع على إدارة هذا الصرح إلى غاية وفاته، اشتغل طول حياته بمواجهة الاستعمار بالكلمة و الوعظ والإرشاد و تفسير القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف، و كون رجالا بالتقوى و الصلاح و تأسيسه لداخلية البعثات البيوضية التي تأتي بطلبة من تونس و ليبيا و سلطنة عمان و من قرى وادي مزاب و ورجلان و من مختلف ولايات الوطن و يقصد إليه خيرة علماء الجزائر، و كان دوره الإصلاحي يتمثل في محاربة الأمية و الجهل و الخرافات التي زرعها المستعمر في المجتمع الجزائري و المزابي خصوصا، كما كان يواجه المستعمر الفرنسي

بالحجة و الدليل، و ناضل في صفوف الثورة التحريرية بمختلف الوسائل المتاحة له ماديا و معنويا و يعود إليه الفضل في قضية رفض فصل الصحراء الجزائرية عن الأم الجزائر متحديا الاستعمار ، و عين في أول حكومة جزائرية بعد الاستقلال مكلفا بحقيبة وزارة الثقافة في عهد المجاهد «يوسف بن خدة».

٥. الشيخ عدون «شريفي سعيد» ١٩٠٢/٢٠٠٤م،نشأ الشيخ عدون و هو شغوف بالعلم و الدراسة رغم وفاة والده منذ الصغر و كون شخصيته على الفصاحة العربية و اجتهد رغم الصعاب التي كانت تلاحقه، و عاشر خيرة مشايخ وادي مزاب و هم علماء زمانه، فانظم إلى حلقة «إيروان» تعني حلقة حفظة القرآن الكريم، مستظهرا لكتاب الله، و استقر مقامه في القرارة بوادي مزاب مساهما في حركة الإصلاح الاجتماعي و الديني مع رفيق دربه الشيخ إبراهيم بيوض الذي لازمه كل مراحل حياته، فاشتغل بالتعليم و إدارة شؤون معهد الحياة الذي أسسه الشيخ إبراهيم بيوض سنة ١٩٢٥ إلى آخر يوم من حياته، تخرج على يده خيرة أبناء الجزائر من مختلف المناطق الوطن و الذين كانوا يدرسون في معهد الحياة، و أشرف على إدارة و تفتيش المدارس الحرة في وادي مزاب منذ الاستقلال مقدما تعليماته وصاياه للمعلمين بضرورة العناية بلغة القرآن الكريم و هي اللغة العربية ، كما كانت له مساهمات في جرائد الشيخ أبو اليقظان إبراهيم التي كان يصدرها في الجزائر.

٦. الشيخ زكرياء «الملقب بمفدي زكرياء ١٩٠٨/١٩٧٧م،من قصر بني يزقن شاعر الثورة التحريرية المجيدة و صاحب النشيد الوطني الرسمي للدولة الجزائرية «قسما»، له من الديوان الشعري اللهب المقدس، ألهب الثورة التحريرية بقصائده الوطنية التي كان المجاهدون في الثورة التحريرية يرددونها كل يوم، مما يتميز بلسانه الفصيح و عشقه لتحرير الجزائر من خلال الكلمة، و ألف ملحمة الجزائر المتكونة من ألف بيت و بيت و سميت «بإلياذة الجزائر»، سرد فيها تاريخ الجزائر منذ العصر الحجري إلى تاريخ الاستقلال و بناء الجزائر المعاصرة، فكان مدرسة للوطنية و تهييج مشاعر الوطنيين من خلال قصائده الثورية.

٧. الشيخ فخار حمو ١٩١٧/٢٠٠٥م، و هو تلميذ الشيخ بيوض إبراهيم، و كان من الأوائل الذين التحقوا بمعهد الحياة بالقرارة، أنشأ شخصيته على العناية بالقرآن الكريم و لغة الضاد،و تميزت أفكاره على النهج الإصلاحي الوسطي المعتدل و كان رائد الحركة الإصلاحية في قصر غرداية رفقة نخبة من رجال وهبوا أنفسهم لخدمة المجتمع و محاربة الأمية و الجهل بتطوير المنظومة التربوية، و كان مدرسة فعلية لتكوين الرجال ، و أنشأ مع مجموعة من اقرأنه مدرسة الإصلاح و معهد الإصلاح و نحن من الخريجين منها، و تولى رئاسة جمعية الإصلاح إلى آخر يوم من حياته، فاشتغل في التدريس و الوعظ و الإرشاد.

٨. الشيخ الناصر المرموري ١٩٢٧/٢٠١١م، تلميذ الشيخ بيوض إبراهيم أيضا، ساهم في تطوير المنظومة التعليمية الحرة بمعهد الحياة و كان رافدا من روافد المجتمع في الإرشاد و التوجيه الديني، مستعملا الخطاب الديني الذي يغلب عليه الطابع الترفيهي لتبليغ الرسالة كميزة أساسية لجلب انتباه مريديه و قاصديه،و كانت رسالته نبيلة و هامة للمجتمع النسوي الذي عرف كيف يخصص لهذه الفئة طريقة خاصة لجلب استماعهن لدروسه التربوية و الإجابة على انشغالاتهن الدينية و الدنيوية ، و تفرغ لمهمة التعليم و التوجيه الديني طوال حياته، متنقلا كأب روحي بين مختلف قصور وادي مزاب، و كلفه الشيخ بيوض رحمه الله بمهمة التدريس و ترأس وفد الإباضيين العمانيين في جمهورية مصر العربية بين سنتي ١٩٦٢/١٩٦٤،اشتغل بالتأليف و تدوين كل ما له علاقة بحياة الشيخ بيوض إبراهيم خاصة ما تعلق بدروس تفسيره القرآن الكريم، شاعر محنك، محبوب لدى الشباب الذي يستمتع بأسلوبه الدعوي نحو إصلاح الفرد بنفسه من خلال قاعدة «الدين النصيحة و الدين المعاملة».

إلى هنا أيها الإخوة الأعزاء تجدون أن اتخاذنا لهذه الشخصيات التي سبق ذكر مناقبها و عنايتها بالقرآن الكريم و بلغة الضاد، يجعلنا نعتز و نفتخر بأننا من رواد حمل هذا المشعل من بعدهم و ممن عاصرناهم و اغترفنا العلم على أياديهم، فكان شعارهم و شعارنا الدائم « التربية و الأخلاق قبل العلم و الثقافة» ، سائلين الله لهم الرحمة و المغفرة و لسائر المسلمين الصادقين في دينهم.

و ينتهي بحثنا هذا من خلال الإلمام بالموضوع ساردين لكم أهم المحطات التي مر بها المجتمع المزابي منذ ١٠ قرون مضت، و نحن نعتني بهذه اللغة و نعيش في مجتمع يتميز بروحه الإسلامية، و لقد اجتهدنا قدر ما استطعنا أن ننقل لكم تضحيات و بسالة هذا المجتمع الفريد من نوعه في العالم الإسلامي الذي أعطى للغة الضاد مكانة خاصة، متحديا كل الإديلوجيات المتعاقبة على تاريخ المنطقة منذ نشأة قرى وادي مزاب إلى الفترات المتعاقبة من الدول الإسلامية إلى عهد الدولة العثمانية و الفترة الاستعمارية إلى استقلال الجزائر، كلها فترات كانت تربط بالمزابيين عقود اتفاق على أن لا يمس هذا النظام فكان همه العناية بالقرآن الكريم و لغة الضاد التي هي أساس الحياة في المجتمع الإسلامي فبدون لغة الضاد لا يرقى المجتمع نحو فضائل الأخلاق و شمائل الرسول محمد صلى الله عليه و سلم و هو الناطق بلسانٍ عربيٍ قرشي، و المجتمع المزابي يعمل بما قاله المولى تبارك و تعالى وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ الحشر: ٧.

و ختاما نوجه لكم ولهيئة المؤتمر الرابع للغة العربية كل التقدير و الاحترام دون أن ننسى فضل الله و فضل صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية الشقيقة و رئيس مجلس الوزراء و حاكم دبي، على حفاوة الاستقبال و وضعكم فينا الثقة الكاملة لتكون لنا كلمة في هذا المؤتمر الذي نسأل الله دوامه و نجاحه للسنوات المقبلة، و لكم في الأخير فائق التحية و التقدير و الاحترام، و السلام عليكم و رحمة الله تعالى و بركاته

المراجع:

- من المصحف الشريف القرآن الكريم - أحاديث رسول الله صلى الله عليه و سلم.

- أعلام الإباضية	جمعية التراث وادي مزاب
- العزابة و دورهم في المجتمع الاباضي بمزاب	الأستاذ صالح بن عمر سماوي
- الإباضية بين الفرق الإسلامية	بكير بن محمد الشيخ بالحاج
- أبو اليقظان و جهاد الكلمة	الدكتور محمد الناصر
- مفدي زكرياء	الدكتور محمد الناصر
- الشيخ بيوض و قضية فصل الصحراء عن الشمال	الدكتور محمد قاسم بوحجام
- مظاهر الفكر العقلاني في الثقافة الأمازيغية	الدكتور عبد السلام بن ميس